قصيدة موكب الأعياد
في مدح الملك سعود
بين تراثية النموذج وحداثة المعالجة

د. عبدالله بن أحمد آل حمادي
قسم اللغة العربية - كلية إعداد المعلمين بأبها

تنزع القصيدة بدءاً من لون شعري مدحي، يستلهم الشكل الخليلي عبر نموذجه العربي التراثي الحاضر في وجدان المبدع العربي وبيانه، والقصيدة تمثل لوناً من ألوان التواصل بين المتلقي الممدوح المتمثل في الملك سعود(١) والمرسل وهو الشاعر طاهر الزمخشري(٢)، رحمهما

---

(١) ولد الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود في الكويت ليلة الثالث من شوال عام ١٣١٩هـ الموافق ١٢ يناير ١٩٠٢م، وهو اليوم الذي وافق تحرك أبيه الملك عبدالعزيز لدخول الرياض، وقد سماه أبوه سعودًا؛ "ليكون فأل خير للأسرة السعودية"، شهد مجموعة من الغزوات وقاد عدداً منها، وأصبح وليًا للعهد، ثم بويع ملكاً عن المملكة العربية السعودية في الرابع من ربيع الأول عام ١٣٧٣هـ، وقد قام - رحمه الله - بمجموعة من الأعمال الإصلاحية على مستوى المملكة وعلى مستوى العالم العربي، وقد شهد عهده إنشاء مجموعة من الوزارات، كما صدر أمره - رحمه الله - في ٨ جمادى الآخرة عام ١٣٨٢هـ بإلغاء الرق، وقد توفي- رحمه الله - في ٦/١١/١٣٨٨هـ. انظر: تاريخ الملك سعود الوثيقة والحقيقة، سلمان بن سعود آل سعود، ط١، بيروت، دار الساقي، ٢٠٠٥م، ص٣ وما بعدها، وعبدالمنعم الغلامي، الملك الراشد جلالة المغفور له عبدالعزيز آل سعود، عني بإعادة طبعه مؤيد الغلامي، ط٢، الرياض، دار اللواء، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٤٤٩، وآل سعود، أحمد علي، ط٢، الرياض، دار الشبل، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ص١٣٦.

(٢) طاهر عبدالرحمن زمخشري شاعر سعودي، ولد سنة ١٣٣٢هـ بمكة المكرمة، تنقل في وظائف حكومية عدة، وقد برز في الإذاعة السعودية، كما أصدر أول مجلة في المملكة للأطفال، وقد عرف بالشعر أكثر منه في أي مجال آخر، يدرس شعره =

الله. وتحمل الرسالة(٣) إلى جانب تشكيلاتها الفنية مضامين تتجه إلى المزاوجة بين استحضار القصيدة النموذج "نونية ابن زيدون" في التشكيل الخارجي عبر الوزن والقافية والغزل والمديح، وظهور رؤى الشاعر الخاصة، وإضافاته المتنوعة التي أثبتت أن القصيدة لا تسير على غرار كثير من القصائد(٤) التي عارضت القصيدة النموذج "نونية ابن زيدون" في ترسم لونها، ومسايرته رغم اختلاف التجارب وتنوعها، ولا شك أن الشاعر يملك أداة شعرية متميزة أظهرت تميزه وحضوره، فهو شاعر يملك لغة شعرية استمدها عبر قراءة واعية للتراث العربي الإبداعي، إلى جانب موهبة حية وثقافة وحسن توظيف لذلك كله، ولذا لا غرابة أن يعده بعض النقاد من الشعراء الذين يجددون ببطء وتؤدة، ويقدمون رجلاً، ويؤخرون أخرى(٥). وربما

= في بعض الجامعات العربية، وقد كتب في جميع أغراض الشعر تقريباً، له مجموعة كبيرة من الدواوين، وبعض الأعمال القصصية مثل "العنبر رقم ٧"، توفي – رحمه الله – عام ١٤٠٧هـ، ينظر: أدباء سعوديون ترجمات شاملة لسبعة وعشرين أديباً، د. مصطفى إبراهيم حسين، ط١، الرياض، دار الرفاعي، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ص ٢٢٥ وما بعدها، وموسوعة الأدباء والكتاب السعوديين خلال ستين عاماً ١٣٥٠–١٤١٠هـ، أحمد سعيد سليم، ط١، المدينة المنورة، نادي المدينة الأدبي، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، القسم الأول، ص ٤٢١ وما بعدها.

(٣) مدح عدد كبير من الشعراء السعوديين الملك سعود رحمه الله، فقد مدحه على سبيل المثال السيد عبيد مدني، انظر: المدنيات، القصائد، ط١، جدة، شركة دار العلم، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص ٨٩، كما مدحه محمد أحمد العقيلي بقصيدته في "موكب التاج"، انظر: المجموعة الشعرية الكاملة لأشعار العقيلي، ط١، جازان، شركة العقيلي وشركاه، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص ٢٨١، ومدحه محمد إبراهيم جدع، انظر: المجموعة الشعرية الكاملة، ط١، جدة، نادي جدة الأدبي، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص٢٢، ٢٥، ٦٥، ٨٢.

(٤) ينظر: نونية ابن زيدون "أضحى التنائي بديلاً" ومعارضاتها، د. محمد بوذينة، د.ط، الحمامات، منشورات محمد بوذينة، سلسلة من غرر الشعر (٨)، د. ت، ص٥–٦.

(٥) الشعر الحديث في المملكة العربية السعودية خلال نصف قرن (١٣٤٥هـ–١٣٩٥هـ)، د. عبدالله الحامد، ط١، المدينة المنورة، نادي المدينة الأدبي، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص ١٠٥.

كان إبداع الشاعر الذي ينطلق من التراث ويجدد فيه هو ما دعا عبدالله عبدالجبار إلى وضعه ضمن شعراء الكلاسيكية الحية التي تمثل الموهبة والمحافظة على عمود الشعر أساسها لديه(٦)، بينما يضعه الدكتور عثمان الصوينع ضمن شعراء الرومانسية الذين احتلت المرأة منزلة كبيرة عندهم(٧)، ويراه الدكتور مصطفى إبراهيم شاعراً، يحمل قيثارة الرومانسية الحالمة، ويتشبث بالنمط القصيدي في وزنه وقافيته، ينوع ويجدد فيه، ولكنه أبداً لم يخض في بحر أسلم شعرنا العزيز إلى غير المرافئ الآمنة(٨).

لقد كان الزمخشري مؤهلاً لمعارضة ابن زيدون، وهو يحمل هذه النزعة التراثية التي لم تحد من تجديده وإضافته، على نحو استطاع معه أن يتجاوز ويختلف عن كثير من الشعراء الذين عارضوا هذه القصيدة كما سيأتي.

تراثية النموذج:

تعد نونية ابن زيدون واحدة من القصائد التي سجلت حضورها الأدبي في سياق التجليات الإبداعية العربية السابقة واللاحقة لها، حيث عارضها شعراء كثر، كانت معارضتهم لها دليل إعجاب بهذا النموذج الإبداعي الذي تجاوز تأثيره الشعراء إلى المتلقي العربي الذي تغنى بهذه القصيدة بعد تسجيلها هذا الحضور والتميز في ذاكرة أجياله المتعاقبة.

فهل كانت قصة غرام ابن زيدون بولادة سبباً في شيوع هذه القصيدة التي سجلت هذه العلاقة بين العاشق الشاعر والمعشوقة

---

(٦) ينظر: التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية، عبدالله عبدالجبار، د. ط، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٥٩م، ص٢٦٢، ٢٦٥.

(٧) ينظر: حركات التجديد في الشعر السعودي المعاصر، د. عثمان الصالح الصوينع، د.ط، د.م، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص ٤٦٣.

(٨) أدباء سعوديون، ترجمات شاملة لسبعة وعشرين أديباً، ص ٢٤٢.

الشاعرة الملكية! أم أن تجربة على هذا النحو لم تكن لتؤثر وتسجل تفاصيلها في الذائقة العربية لو لم تجد مهارة فنية من ابن زيدون منحتها هذا الحضور والتوهج؟

وعلى كل فقد ظلت نونية ابن زيدون - كما يقول محمد بوذينة - "مطمح الأدباء الشعراء في فن المعارضات، شعراء من كل عصر ومصر، ولكن ظلت قصيدة ابن زيدون تقف في القمة لم تطاولها قصيدة على كثرة المعارضين المقلدين"(٩).

وهو يورد هذا الحكم ولم يحصِ كل ما قيل عن معارضتها، إذ يورد لها أربع وثلاثين معارضة، ليس منَ بينها معارضة الزمخشري، رغم أنه أورد معارضة أحمد الغزاوي وزاهر الألمعي، مع تأخر الألمعي عن طاهر زمخشري في مرحلته الفنية والزمنية(١٠).

ومع ذلك فقد كانت هذه المعارضات تدور حول معناها النقدي الذي حدده بعض النقاد بأن "يقول شاعر متأخر عن شاعر متقدم في الزمان، ولو كان الزمان قصيراً جداً لا يتعدى لحظات قصيدة مشابهة لقصيدته بالغرض والموضوع مع الالتزام بالوزن لقصيدته بالغرض والموضوع، مع الالتزام بالوزن والقافية وحركة الروي، وعندها تكون المعارضة تامة"(١١)، ويسمي أحمد الشايب ومحمد نوفل الاختلاف اليسير والكثير في غرض القصيدتين معارضة ناقصة(١٢)، بينما يرى الدكتور عبدالرحمن السماعيل أن القصيدتين المتفقتين في الشكل والمضمون تسمى معارضة صريحة. "أما ما عدا ذلك من القصائد التي فقدت أحد العناصر المذكورة فهي في رأينا معارضات

---

(٩) نونية ابن زيدون "أضحى التنائي بديلاً" ومعارضاتها، ص١٣.

(١٠) ينظر المرجع السابق، ص ٩٣، ٩٥.

(١١) تاريخ المعارضات في الشعر العربي، د. محمد محمود نوفل، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة ودار الفرقان، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص١٣.

(١٢) ينظر المرجع السابق، ص ١٣.

ضمنية لا صريحة"(١٣)، وهو رأي أجدر بالقبول والرضا، حيث إن وسم القصيدة المعارِضة "بكسر الراء" بالناقصة يحيل إلى ما يشبه الحكم النقدي بقصورِها رغم أنها قد تكون أجمل من القصيدة المتقدمة عليها!

ومن هنا فقد كانت معارضة طاهر زمخشري معارضة ضمنية لقصيدة ابن زيدون، حيث إنها اتفقت معها في شكلها الخارجي من حيث بناء القصيدة الموسيقي الذي انطلق من بحر البسيط التام، وهو بحر طبيعته الإيقاعية - كما يرى بعض النقاد - "تتفق مع الشجن والتذكر والحنين، وطواعية هذا البحر لظاهرة الإنشاد، وما أكثر الشجن والتذكر والحنين عند ابن زيدون في شعره الغزلي عامة وفي هذه النونية بصفة خاصة!"(١٤).

كما اتسمت قصيدة الزمخشري بلوعات الحنين والحب إلى مواطن الذكرى تلك المواطن التي حددها ابن زيدون "بالقصر"، بينما حددها الزمخشري بوادي "وج"، فهي لدى ابن زيدون ذكريات تتعلق بطيب العيش وصفائه:

يا ساري البرق غاد القصر واسق به   من كان صرف الهوى والود يسقينا
إذ جانب العيش طلق من تألفنا   ومربع اللهو صاف من تصافينا
وإذ هصرنا فنون الوصل دانية   قطافها فجنينا منه ما شينا
ليسق عهدكم عهد السرور فما   كنتم لأرواحنا إلا رياحينا(١٥)

---

(١٣) المعارضات الشعرية: دراسة تاريخية نقدية، د. عبدالرحمن السماعيل، ط١، جدة، نادي جدة الأدبي، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ص ١٩.

(١٤) نونية ابن زيدون دراسة أسلوبية، د. محمود علي عبدالمعطي، العدد التاسع، إصدار خاص، أسيوط، كلية الآداب، جامعة أسيوط، ٢٠٠٢م، ص٢٢، ٢٣.

(١٥) ديوان ابن زيدون، تحقيق د. عمر الطباع، ص ٢٢٦، وقد كتبت في النص "إن جانب العيش"، وهو خطأ مطبعي لا يستقيم معه المعنى، وقد اعتمدت في نقل الأبيات ديواني ابن زيدون، تحقيق د. عمر الطباع، ومجموعة النيل، طاهر =

بينما يتخذ المكان بعداً أساسياً لدى الزمخشري منذ بدء قصيدته، حيث يحدده بوادي "وج"، ويجعله مساحة مكانية مناسبة لتحميله ذكريات ولواعج الحب.

يا ساكني وج أشواق تنادينا   إلى حماكم فهاجت بعض ما فينا
وذكرتنا الليالي غير عابسة   تضاحك الروض من أصدقاء شادينا
وذكرتنا وفي الذكرى مثار هوى   لمدنفين تغنوا بالمجافينا

ويبدو أن الألم الذي عاناه ابن زيدون من انقلاب الحال، وتغير الزمان هو ذاته الذي عاناه الزمخشري وشكا منه، يقول ابن زيدون:

من مبلغ الملبسينا بانتراحهم   حزناً مع الدهر لا يبلى ويبلينا
أن الزمان الذي ما زال يضحكنا   أنساً بقربهم قد عاد يبكينا
غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا   بأن نغص فقال الدهر: آمينا

إنه الزمان القلب الذي نراه عند الزمخشري في قوله:

لكن تلك الليالي عندما عصفت   بثت شجوناً من الآلام تذوينا
وحرقتنا بنار من لواعجها   وحملتنا اللظى المشبوب راضينا
ولا نقول كما قال الشجي لها: "أضحى التنائي بديلاً من تدانينا"

لقد أعلن الزمخشري في هذا المقطع استحضار قصيدة ابن زيدون استحضاراً واعياً ومفارقاً في الوقت ذاته، وهو ما يشير إلى أن المعارضة هنا معارضة ضمنية تختلف عن نونية ابن زيدون رغم أنها استلهمتها استلهاماً واضحاً في البنية الخارجية، وفي تفاصيل

= زمخشري، ط١، جدة، مطبوعات تهامة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.، وقد أثبت النصين في ملحق البحث؛ ليسهل الرجوع إليهما، ولذا لن أحيل للديوانين في توثيق الأبيات، اكتفاء بهما في ملحق البحث.

الشكوى والألم واستحضار الذكريات المبهجة والمؤلمة معاً، حيث تبدو الذكريات لدى الشاعرين ذكريات عابقة بالوصل والحب ولذاذة العيش، وهي كذلك ذكريات تبعث على الألم والمرارة حين تغيرت الأيام، وانقلب الزمان!

حداثة المعالجة:

حين نستحضر حداثة المعالجة هنا لابد من التوقف أمام جو القصيدتين العام، وهو ما يظهر لنا بدءاً أن كلتا القصيدتين تتوجه إلى مخاطبة بين الشاعر والسلطة، فابن زيدون هنا تمثل له "ولادة" حباً ذا مذاق خاصة "هذا الحب الآسر بين ربيبة الملك وربيب الرئاسة لم ينج من شر الوشاة وسعاية الحساد"(١٦)، لقد كانت العلاقة بين ابن زيدون ومحبوبته علاقة مضطربة دائمة، واتهام متبادل، وصفاء نادر، ولذلك تأتي القصيدة هنا تأكيداً لذكريات تتجاهل كل ذلك، وتتجه إلى "ولادة" ربيبة الملك لتحكي ذكريات ابن زيدون معها في جوانبها الجميلة المشرقة، وما أعقب ذلك من هجر وصد، يحيله الشاعر إلى الحساد والشامتين.

أما طاهر الزمخشري، فهو يقف موقفاً مختلفاً، إنه يقف أمام ملك صالح محب منفق تقي ورع كما رآه الزمخشري، وهو في الوقت ذاته يستحضر المكان هنا وهو "وج" الذي يحيله إلى ذكريات جميلة من الوصل والحب والعشق، وهو ما اندثر وذهب، بيد أنه يعلن في وضوح أنه يختلف عن ابن زيدون الذي شكا من البعد والصد، بعد أن كان التداني وطيب اللقاء، فالزمخشري يقول ولا نقول كما قال الشجي لها: "أضحى التنائي بديلاً من تدانينا".

إنه إعلان للمفارقة والاختلاف، وهو ما يجعل القصيدة تعلن ذلك عبر قراءتها قراءة تستبطن إحالاتها الفنية، وصورها، ومقارنتها بصور ابن زيدون.

---

(١٦) ديوان ابن زيدون، تحقيق د. عمر الطباع، ص ٨.

ومنذ البدء يظهر المكان هنا محل الذكرى، وملعب الأنس لدى الشاعرين مختلفاً جداً، إنه لدى ابن زيدون "القصر" بكل حمولات هذه اللفظة من النخبوية والغنى والرفاهية والتميز.

يا ساري البرق غاد القصر واسق به   من كان صرف الهوى والود يسقينا

أما عند طاهر زمخشري فهو "وج" بكل حمولات المكان من شعبية وتلقائية جعلته مكاناً مشاعاً للناس.

يا ساكني وج أشواق تنادينا   إلى حماكم فهاجت بعض ما فينا

ويبدو الإحساس ظاهرياً ممضاً عند الشاعرين لفراق أيام الوصل واللهو والصفاء، إلا أن المتأمل يلحظ أن آهات "ابن زيدون" كانت تقترن بذلك العدو الذي تسبب في هذه القطيعة، وهو ما يزال يذكره؛ مما يوحي بأن هناك قصداً آخر لدى "ابن زيدون" من هذه الشكوى المريرة تتجاوز العشق والهجر إلى مؤامرات سياسية حاقدة، يقول:

غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا   بأن نغص فقال الدهر: آمينا
يا ليت شعري ولم تعتب أعاديكم   هل نال حظاً من العتبى أعادينا
ما حقنا أن تقروا عين ذي حسد   بنا، ولا أن تسروا كاشحاً فينا

إن خطاب المؤامرة هنا يتداخل بشكل لافت بين تفاصيل الحب والوفاء وشكوى الهجر، فطلب الوصال، وهو ما يحيل إلى أن "ابن زيدون" كان يستحضر ظاهرياً خطاباً عاشقاً، لكنه كان يحمله بطريقة فنية بشكوى ممضة من المؤامرة التي أبعدته عن السلطة، وهو ما يحيل الأبيات الشاكية هنا إلى لون من العتاب السياسي، وتملق السلطة، حيث لم يكن خطاباً بريئاً "لولادة" فيما يبدو!

بيد أن الزمخشري كان وفياً لمحبيه، وخالصاً في بكاء حبهم وذكرياتهم، لم يشك من عدو متربص، أو حاسد، متابع حتى غدا الدهر حارساً لهذا اللهو البريء:

أيام نلهو وعين الدهر تحرسنا وكأسنا الصفو والأفراح ساقينا
آنا نطير فراشات إلى قبس من الجمال ليغرينا فيبلينا
وتارة نترامى تحت ضاحكة من الخمائل بالأزهار تطوينا
تجري الليالي علينا غير داجية فالنور في جوفها ضاح أفانينا
فيها النسائم تسري بالشذا عطراً تنافس الوُرق تغريداً وتلحينا
حمائم الأيك أسراباً تساجلنا ومن طيوف المنى شدو يناغينا

إنها العلاقة التي تتم في النور، وتحمل براءة الفراشات، وهدوء الحمائم، ونفحات الطيب في صورة متوازنة هادئة، لقد كان طاهر زمخشري يسير، وهو يستحضر نص ابن زيدون الذي اختلط فيه الحب مع الرغبة في السلطة، وأراد أن يكون حباً صادقاً لا تختلط به الأهواء والنزعات الشخصية الذاتية التي تريد أن تحقق ذاتها من خلال حب يتوسل بالعشق للوصول إلى مآربه حتى ولو لم يكن حباً صادقاً، ومن هنا فالباحث في تفاصيل تعاطيه من الممدوح يلحظ خلف رؤيته رؤية مغايرة لابن زيدون، فقد ركز ابن زيدون في "ولادة" الملك من خلال وصفها بمجموعة من الأوصاف الملكية النخبوية الخالصة، حتى أحالها إلى مخلوق آخر، له صفات خارقة، تأكيداً لهذه الطبقية التي سيطرت على ابن زيدون هنا إن ولادة "الملك" هنا هي التي أقرت عيون الحساد والأعداء، مع أنه لم يعتقد إلا الوفاء والإخلاص لها، ولادة الملك هي التي يقول عنها:

ربيب ملك كأن الله أنشأه مسكاً، وقدر إنشاء الورى طينا
أو صاغه ورقاً محضاً وتوجه من ناصع التبر إبداعاً وتحسينا

إذا تـأود آدتـه رفـاهـيـة   توم العقود وأدمته البُرَى لينا
كانت له الشمس ظئراً في أكلته   بل ما تجلى لها إلا أحايينا
كـأنما أثبتت في صحن وجنته   زهر الكواكب تعويذاً وتزيينا

لقد تحول خطاب العاشق هنا إلى لون من المديح النوعي لهذا المحبوب الذي أضحى مخلوقاً آخر! كأنما خلق من المسك، لا من الطين، بل كأنه فضة خالصة طليت بالذهب إبداعاً وتحسيناً، ولذا فهو لا يستطيع الحركة إذا تحرك؛ لوجود هذه العقود والجواهر حتى لتصبح له شمسه الخاصة به، فهو لا يظهر لشمس الآخرين إلا في أوقات قصيرة، وتصبح وجنته مشعة لظهور الزينة فيها، هذه الزينة التي تشبه الكواكب قد وضعت في جبينه اتقاء الحسد، وجلباً للزينة!

إن ولادة هنا معشوقة مختلفة أمام عاشق مختلف أيضاً، فهو يرنو للوفاء، ويذكر ذاته المفجوعة التي تقف تمجد وتشيد وتهيل على الممدوح هذه الصفات، وولادة هنا مخلوق هلامي جامد أمام هذه الاستغاثات المتتالية، إنها تعيش في عالم مختلف كل الاختلاف عن عالم الشاعر، إنها ولادة التي تخفي خلفها السلطة القاسية الظالمة.

أما الزمخشري فهو يخاطب ممدوحه الملك خطاباً مختلفاً بل ومضاداً لهذا الخطاب، إنه يقف أمام ملك مختلف، أمام سلطة تزيل هذه الطبقية وتتعايش مع شعبها، وتمثل تطلعات الفقراء والمستضعفين، وكأن الزمخشري هنا يشير إلى ذلك وهو يعمد إلى وصف ممدوحه الملك بصفات حسية ومعنوية تؤكد هذا التداخل بين الملك وشعبه، فطلعته للجميع تشبه الشمس التي تعطي ضوءها الجميع، وليس مخلوقاً آخر من المسك:

فمن مسراته تندي مرابعنا   بطلعة منه ضوت في مغانينا
غراء كالشمس إلا أن ساطعها   بموكب البشر إن لاحت تحيينا
كأنها إثمد في عين فاتنة   بل إنها بلسم للروح يشفينا

إن الشمس هنا لم تعد كما كانت لدى ابن زيدون شمساً خاصة، والممدوح هنا ملك يختلف طابعه ومزاياه عن الطابع الطبقي الذي صنعه "ابن زيدون" لولادة.

لقد كان ابن زيدون يخاطب في ولادة هذه الملكية الخاصة التي تعيش في جو خاص، بينما تبدو "الملكية" لدى الزمخشري شمساً تضيء للجميع، وتمنح الجميع دون استثناء واختيار، الشمس هنا ذات دلالة خاصة على عدالة العطاء وشموله، بل إن الزمخشري حين حاول أن يسير في ركاب المدح النخبوي الخاص سرعان ما تراجع بشكل لافت ودال:

كأنها إثمد في عين فاتنة   بل إنها بلسم للروح يشفينا

إن الإضراب هنا عن عين الفاتنة والتوجه عبر أداته الفاعلة هنا "بل" ليكون بلسماً للأرواح إنما هو إشارة إلى وعي الزمخشري ضرورة الاختلاف والتباين عن ممدوح "ابن زيدون".

وإذا كانت ولادة تُشكى في نونية ابن زيدون من جمود مشاعرها، وصلابة عواطفها أمام استغاثاته المتتالية، ومدائحه الخارجية النخبوية المتلاحقة فإن الزمخشري هنا يشيد بممدوحه "الملك سعود" بنقيض صفات الملكية الخاصة بولادة وجوها الملكي آنذاك الذي قدمه لنا في صورة طبقية واضحة! إن الملك سعود - رحمه الله - يظهر هنا ملكاً كريماً يمنح العطاء المعنوي والمادي للجميع، يبتغي الأجر والثواب من الله:

يعطي البشاشة لم تقصر على أحد   ويمنح البشر أفراحاً تواسينا
وينثر الخير لم يمنن بسابغة   وإن يكن فيضها يهمي فيروينا
يد من الله مدت من دوانقها   نعمى وبشرى وأفراح تنادينا
وشاهد أنها للخير قد بسطت   بطحاء مكة إذ تعطي المساكينا

إنه العطاء للجميع في كل صور العطاء ليس العطاء المادي فقط، بل العطاء المعنوي.

إنها ابتسامة الحب من القائد الذي يواسي بها وبعطائه المحتاجين والمساكين من شعبه

إن البشاشة التي تعلو محيا هذا الملك سمة خاصة، يشير إليها الزمخشري، ويشيد بها؛ فابتسامة الملك في وجه الجميع من رعيته دلالة وعي خاص لهذا الرجل، وهو ما يشير إليه قوله: "يعطي البشاشة لم تقصر على أحد"، إنها ابتسامة الحب من القائد الذي يواسي بها وبعطائه المحتاجين والمساكين من شعبه، وهو عطاء لا يبتغي به شيئاً من الدنيا وزينتها، بل كل ما يرجوه - رحمه الله - ثواب الله سبحانه وتعالى، ولذا لا غرابة أن يكون داخله عامراً بتقوى الله عز وجل، وهو الداخل الذي صنع الظاهر، وقد رصد الزمخشري كيف يتحول صلاح الباطن إلى صلاح الظاهر يقول:

وفي المشاعر تمشي ناسكاً وجلاً إيمان صدق لم تأخذه تلقينا
ويشهد البيت إذ عظمت حرمته فجئته خاضعاً تخشى الموازينا

ولذا لا غرابة أن يتحول القصر الذي دعا له ابن زيدون وتذكر أيامه، وحنَّ إلى زمانه الذي كان مملوءا بصروف الهوى، وألوان النعيم حين يقول:

يا ساري البرق غاد القصر واسق به من كان صرف الهوى والود يسقينا
ويا حياة تملينا بزهرتها منى ضروباً ولذات أفانينا
ويا نعيماً خطرنا من غضارته في وشي نعمى سحبنا ذيله حينا

أقول: لا غرابة أن يتحول هذا القصر لدى الملك سعود إلى قصور عامرة بالمصلين كما يقول الزمخشري:

فلا القصور وإن زخرفت ظاهرها إلا محاريب غصت بالمصلينا

واستحضار المصلين هنا في مواجهة القصر العابث المملوء باللذات المتنوعة جديرة بالتأمل والتمعن.

وتأتي المفارقة النوعية هنا حين يستلهم الزمخشري تلك الصفات التي تؤكد الرؤية الطبقية لدى "ابن زيدون" حين ينظر إلى "الملك" نظرة تحمل هذه الميزات الخاصة التي تجعلها مخلوقاً آخر يعيش في قصوره حياة خاصة أيضاً، "فولادة" ربيبة الملك التي صيغت من المسك، وتلبست الجواهر هي ذاتها التي يقف "ابن زيدون" أمام طبقيتها الملكية الخاصة ذليلاً خانعاً ليقول:

لسنا نسميك إجلالاً وتكرمة   وقدرك المعتلي عن ذاك يغنينا
إذا انفردت وما شوركت في صفة   فحسبنا الوصف إيضاحاً وتبيينا

نعم لم يستطع ابن زيدون أن يذكر اسمها لوجود هذه المساحة الكبيرة من التفرقة النوعية، التي فرضتها الملكية آنذاك، بينما يأتي الملك سعود هنا ملكاً يناديه الزمخشري باسمه المجرد، بعد أن ذكر صفاته:

وعش فأنت "سعود" لا كفاء له   وقد رأينا بما تبدي البراهينا

إنه وصف بتفرد هذا الرجل "الملك"؛ لكنه تفرد له ما يسوغه من البراهين التي ذكرها الشاعر قبلاً في العطاء والكرم والتقى والإيمان، وكأن الزمخشري هنا يضع المشكك أمام حقائق وأدلة واضحة، بينما كان ابن زيدون يعلي ولادة "الملك" عن التسمية، ويمنحها الصفات الخاصة التي لم تشارك فيها دون أن يجيب عن لماذا؟ إلا أنها معشوقته الخاصة، ورؤيته الذاتية الصرفة.

وينطلق الزمخشري إلى أن يعلن هذا التباين والاختلاف عن "ابن زيدون" حين يستلهم رؤية ابن زيدون الخانعة أمام هذه الملكية المقيتة في قوله:

ما ضر أن لم نكن أكفاءه شرفاً   وفي المودة كاف من تكافينا

وهو اعتراف بهذه الطبقية التي فرضها واقع ولادة آنذاك، هذا الواقع الذي أحال الناس إلى طبقات حسب التقسيم الظالم للمكانة والنسب، ومخلخلاً القيم الإنسانية العادلة، لقد وعي الزمخشري هذه الرؤية؛ فنقضها نقضاً رائعاً، حين كانت "ملكيته" الواعية هي التي تقضي على هذه الطبقية بالفعل والممارسة والقرار السياسي الراشد يقول:

بل شاهد العدل من أعتقتهم كرماً   من الموالي وإن داموا موالينا

وهنا تضحي المفارقة واضحة بين الشاعرين في رؤية هذه "الملكية" التي يرزح "ابن زيدون" تحت وطأتها "وملكية" الزمخشري التي تعلن المساواة بين الجميع، وتلغي بالعمل والقول هذه الطبقية المقيتة، مستندة إلى وعد الله بالأجر والمثوبة لهذا العمل الرائع.

ومن هنا يصبح الزمخشري محقاً حين أعلن صراحة المفارقة والاختلاف عن "ابن زيدون"؛ فلم يعلن التفجع والبكاء والألم على أيام "وج" الخالية، حين بكى ابن زيدون أيام "القصر"، وتفجع وتألم من فراقها، لقد قال الزمخشري في مفارقة واضحة:

ولا نقول كما قال الشجي لها :   "أضحى التنائي بديلاً من تدانينا".

وإذا كان الدهر مؤمناً على الفراق، وشاهداً ومتمماً لمقاصد الحساد عند ابن زيدون:

غيض العدا من تساقينا الهوى فدعوا   بأن نغص فقال الدهر: آمينا

فقد أضحى مؤمناً ومؤكداً على دعاء القلوب المحبة، لملكها التقي الورع عند الزمخشري الذي يقول باسم قلوب الشعب كله، لا باسم بعض الحاقدين الحاسدين:

وعش وأنت سعود كلما هتفت   له القلوب يقول الدهر: آمينا

وهنا المفارقة بين تأمين الدهر مع الحساد والأعداء في قضية جزئية ذاتية خاصة وتأمينه مع قلوب الشعب لملك عادل تقي ورع، ألغى هذه الرؤى الطبقية الخاصة، ومنح الجميع العدل والحياة السوية الهانئة.

لقد استحضر الزمخشري قطعاً - وهو أمام هذا الملك العادل - ذكريات "وج" كما استحضر "ابن زيدون" ذكريات القصر الملكي، ونظر الزمخشري في واقعه فرآه واقعاً رائعاً أمام قيادة راشدة؛ فأغنته روعة الحاضر، وأمل المستقبل عن بكاء ذكريات "وج" التي كانت في مراحل شبابه الأولى، بينما كان ابن زيدون يبكي جاهاً ضاع، وقرباً من الحاشية الملكية تولى، وراح يتوسل إليه عبر ولادة التي كانت وسيلة من وسائل بكاء ذلك الماضي الجميل، وتنفيساً عما يلاقيه من الألم والمعاناة، ولا غرو فقد كانت شخصيته من الشخصيات التي تتميز بأنها "أرستقراطية الطبقة، فقد كان ابن زيدون ثرياً مرفهاً كثير الاعتزاز بذاته قوي الإيمان بمكانته"(١٧)، ومع ذلك فقد كانت هذه الشخصية عاشقة للمجد، تتغير وفق مصالحها، ولذا يقول الكتور/ عمر الدقاق: "ومن جهة أخرى لا يبعد أن تكون نفس ابن زيدون المتعطشة إلى المجد هي التي سولت له أن يتغير على آل جهور"(١٨).

إنها النفس التي تتغير مواقفها أحياناً لوجود مصالح ومؤثرات خارجية؛ ومن هنا فلا غرو أن يكون حديث الشاعر عن فكرة الهجر والصد من قبل المحبوبة - كما يرى د. محمود عبدالمعطي - "إنما

---

(١٧) ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري، د. مصطفى محمد السيوفي، ط١، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ٦٦٠.

(١٨) ملامح الشعر الأندلسي، د. عمر الدقاق، د.ط، بيروت، دار الشرق العربي، د.ت، ص ١٣٤.

جاء بمثابة المتنفس لما كان يعانيه من إحباط نفسي أصابه حين ضاع أمله في الحصول على منصب من مناصب السلطة"(١٩).

ولئن كان قد وصل إلى السلطة مرة أخرى بعد خروجه من السجن كما تشير الأخبار التاريخية(٢٠) إلا أن خطابه الشعري إلى ولادة لم يصفُ قطعاً للحب والحنين والشوق، إذ تلبس "بولادة" التي أضفى عليها سمات "الملكية" الخاصة التي حلم بها، وهي ملكية أكدت الطبقية المقيتة، وجعلت "الزمخشري" يواجهها بنموذج ملكي واقعي، ألغى كل هذه الطبقيات، والتصق بالفقراء والمساكين، ومنحهم الحب والعطاء،؛ لقد وضع الزمخشري نموذجه أمام نموذج ابن زيدون، وتقاطع معه واختلف، وهو في كل ذلك يتجه إلى رسم هذه العلاقة التي جسدها الملك سعود مع شعبه بكل فئاته؛ فكان نموذجاً حقيقاً بالاقتداء، جديراً بالثناء، رحمه الله رحمة واسعة.

---

(١٩) نونية ابن زيدون، ص ١٣٠.

(٢٠) ينظر: تاريخ الأدب العربي، د. عمر فروخ، ط٢، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٤م. جـ ٤، ص ٥٩٢.

ملحق البحث

أولا: قصيدة "أضحى التنائي" لابن زيدون

القصيدة الغزلية التي بوّأت ابن زيدون زعامة في الغزل في عهده، والتي نظمها باكياً عهد الهوى الذي هوى بعد أن صرمت ولادة ابنة المستكفي حبل وصاله، وفي هذه المطوّلة يذكّر الشاعر محبوبته بأيام الحب الخوالي ويسألها الوفاء.

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا   وناب عن طيب لقيانا تجافينا
ألاّ ! وقد حان صبح البين، صبحنا   حَيْنٌ، فقام بنا للحين ناعينا
من مبلغ المُلبسينا، بانتزاحهمُ   حُزْناً مع الدهر لا يَبْلَى وَيُبْلِيْنَا
أَنَّ الزمانَ الذي ما زال يُضْحِكُنَا   أُنساً بقربهمُ، قد عاد يُبْكِينا
غِيظَ العدا من تساقينا الهوى، فدعوا   بأن نغصَّ، فَقَال الدهر: آمينا
فَانْحَلّ ما كان معقوداً بأنفسنا   وانْبَتَّ ما كان موصولاً بأيدينا
وقد نكون، وما يُخشى تفرقُنا   فاليوم نحن، وما يُرجى تلاقينا
يا ليتَ شعري، ولم نُعْتب أعاديَكم   هل نال حظاً من العُتبى أعادينا
لم نعتقد بعدكم إلاّ الوفاءَ لكم   رأياً، ولم نَتَقَلَّد غيره دينا
ما حقّنا أن تُقِرّوا عَيْنَ ذي حسدٍ   بنا، ولا أن تَسُرُّوا كاشحاً فينا
كنا نرى اليأسَ تُسْلِينا عوارضُه   وقد يئسنا فما لليأس يُغرينا
بِنْتُم وبنّا، فما ابتلّت جوانحُنا   شوقاً إليكم، ولا جفت مآقينا
يَكادُ، حِين تناجيكم ضمائِرُنا   يقضي علينا الأسى لولا تَأَسِّينَا
حالتْ لفقدِكُمُ أيامُنا، فَغَدَتْ   سوداً، وكانت بكم بيضاً ليالينا
إذ جانبُ العيش طلقٌ من تألفنا   ومربع اللهو صافٍ من تصافينا
وإذ هَصَرْنا فُنُونَ الوصل دانيةً   قطافُها، فَجنينا منه ما شينا
لِيُسْقَ عهدُكُمُ عَهْدُ السُّرور فما   كنتم لأرواحنا إلاّ رياحينا

لا تَحْسَبُوا نأيكمْ عنا يغيرنا   إن طالما غير النأيُ المُحبينا!
والله ما طلبت أهواؤنا بدلا   منكم، ولا انصرفت عنكم أمانينا
يا ساريَ البرقِ غادِ القصرَ واسق به   من كان صِرْفَ الهوى والودِّ يُسْقينا
واسأل هنالك: هل عنّى تذكُّرُنا   إلفاً، تَذَكُّرُه أمسى يُعَنِّينَا؟
ويا نسيم الصَّبا بلغْ تَحِيَّتَنَا   من لو على البعد حيَّ كان يُحيينا
فهل أُرَى الدهرَ يَقْضينا مُسَاعَفَةً   فيه، وإن لم يكن غِبّاً تقاضينا
رَبيبُ مُلك، كأن اللهَ أنشأهُ   مِسْكاً، وقدّر إنشاء الورى طينا
أو صاغه وَرِقاً مَحْضاً، وَتَوَّجَه   من ناصع التِّبْر إبداعاً وتحسينا
إذا تَأَوَّدَ آدتْهُ رفاهيةً   تُومُ العُقُود، وَأَدْمَتْه البُرَى لينا
كانت له الشمسُ ظِئْراً في أَكِلَّتِه   بل ما تَجَلَّى لها إلاَّ أَحَايينَا
كأنَّما أُثْبِتَتْ في صَحْن وجنته   زُهْرُ الكواكب تَعْويذاً وتَزْيينا
ما ضرّ أَنْ لَمْ نَكُن أكفاءَهُ شَرَفًا   وفي المودَّة كَافٍ من تَكافينا
يا روضةً طالما أَجْنَتْ لَوَاحِظَنَا   وَرْداً، جلاه الصِّبا غَضًّا، وَنِسْرينا
ويا حياةً تَمَلَّيْنَا، بزَهْرَتِها   مُنًى ضُرُوباً، وَلَذَّات أَفَانِينَا
ويا نَعيماً خَطَرْنا من غَضَارَته   في وَشْي نُعمى سَحَبْنا ذَيْلَه حينا
لَسْنَا نُسَمِّيك إجْلالاً وَتَكْرِمَةً   وَقَدْرُك المُعْتَلِي عن ذاك يُغْنِيْنَا
إذا انْفَرَدْت وما شُورِكْت في صِفَة   فَحَسْبُنا الوصفُ إيضاحاً وتَبْيينا
يا جنةَ الخُلْد أُبْدِلْنَا بسِدْرَتِها   والكوثَرِ العذب زَقّوماً وَغِسْلينا
إن كان قد عزَّ في الدنيا اللقاءُ ففي   مواقفِ الحشْرِ نلقاكُمْ ويَكْفينا
كأنّنا لم نبت والوصلُ ثالثُنَا   والسعدُ قد غضَّ من أجفان واشِينا
سرّانِ في خاطرِ الظَّلْمَاءِ يكتُمُنا   حتى يكادُ لسانُ الصبح يُفْشينا
لا غروَ في أن ذكرنا الحُزْنَ حين نهتْ   عنه النُّهى، وتركنا الصبرَ ناسينا
إنّا قرأنا الأسى يوم النوى سُوَراً   مكتوبةً، وأخذنا الصَّبْرَ تلقينا
أما هواك، فلم نَعْدِلْ بمَنْهَلِه   شِرْباً وإن كان يُروينا فَيُظْمِينا
لم نَجْفُ أُفْقَ جمال أنت كَوكَبُهُ   سالِيْنَ عنهُ، ولم نَهْجُرْهُ قَالِيْنَا

ولا اختياراً تَجَنَّبْنَاه عن كَثَب   لَكِنْ عَدَتْنَا على كُرْه عَوَادِيْنَا
نَأْسى عليك إذا حُثت مُشَعْشَعَةً   فِينا الشَّمُولُ وغَنَّانَا مُغَنِّيَنَا
لا أَكْؤُسُ الرَّاح تُبْدِي من شَمَائِلنَا   سِيما ارْتِيَاح، ولا الأَوْتَارُ تُلهينا
دُومِي على العَهْدِ - ما دُمْنَا - مُحَافظَةً   فالحُرُّ مَنْ دَانَ إنْصَافاً كَمَا دِينا
فَمَا اسْتَعَضْنَا خَلِيلاً منْك يَحْبسُنَا   ولا اسْتَفَدْنَا حَبِيْباً عَنْك يُثْنِيْنَا
وَلَوْ صَبَا نَحْوَنَا من عُلْو مَطْلَعه   بَدْرُ الدُّجَى لم يكُنْ حاشاك يُصْبِيْنَا
أَوْلِي وَفَاءً - وَإنْ لَمْ تَبْذُلِي صِلَةً -   فالطَّيْفُ يُقْنِعُنَا والذِّكْرُ يَكْفِيْنَا
وفي الجوابِ مَتَاعٌ إنْ شَفَعْتِ به   بيضَ الأَيَادِي الَّتِي مَا زِلْت تُولِيْنَا
عَلَيْكِ مِنَّا سَلامُ اللهِ ما بَقِيَتْ   صَبَابَةٌ بِكِ نُخْفِيهَا فَتُخْفِيْنَا

ثانياً: قصيدة موكب الأعياد في مدح الملك سعود لطاهر زمخشري

ألقيت بين يدي حضرة صاحب الجلالة الملك سعود في أحد أعياد الفطر المبارك بالطائف.

يا سكاني "وج" أشواق تنادينا   إلى حماكم فهاجت بعض ماقينا
وذكّرتنا الليالي غير عابسةٍ   تُضاحك الروض من أصداء شادينا
وذكرتنا وفي الذكرى مثار هوى   لمدنفين تغنَّوا بالمجافينا
نسوا على قرب عهدٍ ما نكنُّ لهم   من الوداد وقد كانوا المواسينا
أيام نلهو وعينُ الدهر تحرسُنا   وكأسُنا الصفوُ؛ والأفراح ساقينا
آنًا نطير فراشاتٍ إلى قبس   من الجمال ليُغرينا فيبلينا
وتارة نترامى تحت ضاحكةٍ   من الخمائل بالأزهار تطوينا
تجري الليالي علينا غير داجيةٍ   من الخمائل بالأزهار تطوينا
فيها النسائم تسري بالشذا عطراً   تنافس الورقَ تغريداً وتَلحينا
حمائمُ الأيكِ أسراباً تساجلنا   ومن طيوفِ المنى شدوٌ يناغينا
لكنَّ تلك الليالي عندما عصفتْ   بثتْ شُجوناً من الآلامِ تذوينا
وحرَّقتنا بنارٍ من لواعجِها   وحمَّلتنا اللظى المشبوبَ راضينا

ولا تقول كما قال الشجيُّ لها: "أضحى التنائي بديلاً من تدانينا"
لأن ذكرى المنى في "وج" يجعلها   فألُ السعود حياة في مجالينا
فمن مسراتِه تندي مرابعنا   بطلعةٍ منه ضوّت في مغانينا
غراء كالشمس إلا أن ساطعَها   بموكبِ البشرِ إنْ لاحت تحيينا
كأنها إثمدٌ في عينِ فاتنة   بل إنهَا بلسمٌ للروح يشفينا
فكفُّهُ فيضُ جودٍ كلماَ هطلتْ   تجري المباهجُ في أكَنافِ وادينا
والروضُ من فرحةٍ تغدو خمائله   تناثر الشكر ريحاناً ونسرينا
وكلُّ يوم إذا ما لاح مزدهراً   كان السعود وما يُعطي عناوينا
يعطي البشاشة لم تقصر على أحد   ويمنح البشر أفراحاً تواسينا
وينثر الخيرَ لم يَمْنُنْ بسابغةٍ   وإن يكن فيضها يهمى فيروينا
يدٌ من اللهِ مُدَّتْ من دوافقها   نعمى وبشرى وأفراحٌ تنادينا
وشاهدٌ أنها للخيرِ قد بُسطتْ   بطحاء مكة إذ تعطي المساكينا
بل شاهد العدل من أعتقتهم كرمًا   من الموالي وإن داموا موالينا
وفي المشاعر تمشي ناسكاً وجلاً   إيمان صدق ولم تأخذه تلقينا
أبوك ورَّثك الإيمانَ فانتشرتْ   دلائلٌ جعلت هذا التقى دينا
ويشهدُ البيتُ إذ عظَّمتَ حرمتَهُ   فجئتَهُ خاضعاً تخشى الموازينا
فلا القصور وإن زخرفت ظاهرها   إلا محاريب غصَّتْ بالمصلينا
أجنت لك الورد أغصانٌ بها رقصت   ثمارُها وجناها للمحبينا
في "الناصرية" إذ ترنو الغصون إلى   خمائل الزهر تهديها رياحينا
شهدتُها فتملّتْ من مفاتنها   نفسي وقد سعدت في ظلها حينا
وأنتَ ريحانةُ الدنيا وبهجتها   فهل بغيركِ تعطينا أمانينا ؟
وعيد مولدك الميمون طالعه   بالبشر، والفَتح، أجيالاً يحيِّنا
فاهنأ بموكب أعياد قد احتشدت   وفي مسرَّاتها تُزجى تهانينا
وعش فأنت سعود لا كفاء له   وقد رأينا بما تبدي البراهينا
وعش وأنت سعود كلما هتفت   له القلوب يقول الدهر: آمينا